الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

١٣ يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

« مُروا بالمعْروفِ وانْهَوْا عَن المنكرِ ، من قَبْل أنْ تَدْعُونِى فَلا أُجِيبكُمْ، وتَسْألونِى فَلاَ أُعطِيكم ، وتَسْتَنْصِرُونِى فَلاَ أنْصرْكُم»(١) .

قال عز وجل فى قرآنه الكريم :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (آل عمران)

إن الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، أى أن هذه الآية تطالب كل أمة المسلمين بذلك ، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمنْ يعرف حكماً من الأحكام عليه أن يأمر به.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ(٢) ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ (العصر)

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٩/٦) وابن حبان (١٨٤١ ـ موارد الظمآن) من حديث عائشة زوج النبى قالت : دخل علىَّ رسول الله فعرفت فى وجهه أن قد حفزه شىء فتوضأ ثم خرج فلم يكلم أحداً فدنوت من الحجرات فسمعته يقول : « يأيها الناس إن الله عز وجل يقول : مروا بالمعروف » الحديث.

(٢) العصر : الدهر أـ أى زمن . أو : هو وقت العصر المعروف .

فالسورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، وبعد ذلك قال الحق (وتواصوا) ولم يقل « ووصوا».

ما معنى « تواصوا » ؟

معناه : أن يعرف كل مؤمن أنه من الأغيار ، وكذلك أخوه المؤمن ، وقد يضعف أحدهما أمام معصية فيصنعها ، لكن الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية.

لذلك يكون على غير الضعيف توصية الضعيف ، وعلى الضعيف أيضاً ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره ، فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم ، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية.

يجب أن نفهم أن كلنا موصٍ حينما نجد من يضعف أمام معصية ، وكلنا مُوصَىً حين يكون ضعيفاً أمام المعصية ، فالتواصى يقتضى التفاعل بين جانبين، فمرة تكون مُوصياً ، ومرة تكون مَوصىً ، وكذلك التواصى بالصبر.

فالتوصية أمر متبادل بين الجميع ، فساعة يوجد إنسان فى لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيوصيه.

وهكذا ترى أنه لا يوجد أناس مخصوصون ليوصوا ، وآخرون مهمتهم تلقِّى التوصية ، إنما الأمر متبادل بينهم ، وهذا هو التكافل الإيمانى ، فالإنسان قد يضعف فى مسألة من المسائل فيأتى أخ مؤمن يقول له: ابتعد عن هذا الضعف.

إن هذه المسألة تحدث بالتناوب لمقاومة لحظات الأغيار فى النفس البشرية ، لأن لحظات الأغيار لا تجعل الإنسان يثبت على حال ، فإذا ما رأينا إنساناً قد ضعف أمام التزام ما فعلينا أن نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر ، وأنت أيضاً حين تضعف ستجد من أخوتك الإيمانية مَنْ يوصيك.

وهذا يتناوب الناس جميعاً ، فأنت فى فترة ضعفى رقيب علىَّ فتوصينى، وأنا فى فترة ضعفك رقيب عليك ، فأوصيك.

وهذا هو معنى قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. ﴿٧١﴾ ﴾ (التوبة)

فالمؤمن عقيدته مبنية على الاقتناع وعلى الخير ، فإن وُجِد فى مؤمن شر ، فوليُّه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير ، ذلك لأن النفس البشرية لها أغيار متعددة ، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج الله فى كل شىء ، بل هناك خصلة ضعف فى كل نفس بشرية.

فإن وُجِد فى المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يُبيِّنون له نقطة ضعفه ويُبصِّرونه وينصحون له ، ويُرد فى نقطة ضعفه ، والمؤمن أيضاً ينبه غيره ويُبصِّره.

وهكذا نجد أنه فى المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر فى نقطة ضعفه ، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه ، ليكتمل إيمان الجميع ، ومن يقصر فى شىء يجد القريب منه ، وهو يسد الثغرة الطارئة فى سلوكه.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴿٧١﴾ ﴾ (التوبة)

لم يبين الحق سبحانه لنا مَنْ المولَى ومَنْ الموالى ، فكل مؤمن هو ولى وهو مُوالٍ ، لأن الولاية مأخوذة من «يليه» أى صار قريباً ، وضدها عاداه ، أى بَعُدَ عنه وتركه.

إذن : فالموالاة ضدها العداوة ، وفائدة القرب أن يكون الولى نصير أخيه المؤمن فى الأمر الذى هو ضعيف فيه.

فإذا كنت ضعيفاً فى أمر ما فأخى المؤمن ينصرنى فيه ، وما دام أخى المؤمن ينصرنى فى أمر ما ، فإن صار هو ضعيفاً فى شىء أنصره أنا فيه ، فنتفاعل ونتكامل ، ويصبح كل منا ولياً ومُوَالى.

والولاية تكون أيضاً فى الحق ، فقد أميل إلى الباطل فى نقطة فيقول لى أخى المؤمن : اعدل. وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له : اعدل.

وهكذا يتكامل الإيمان.

ومادام الحق سبحانه وتعالى قد قال: ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة)

ولم يُعيِّن البعض، فكل واحد صالح لأن يكون ناصراً ومنصوراً.

لذلك قال الحق سبحانه عن أمة محمد ﷺ:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾. (آل عمران)

أى : أنكم يا أمة محمد أفضل أمة أُخْرِجَتْ للناس لا حسباً ولا نسباً ، ولكن اتباعاً لمنهج «افعل» و«لا تفعل» ، تأمرون بالطاعات ، وتنهوْن عن كل ما نهى عنه الدين، وبذلك تكونون قد طبقتم المنهج الدال على صدق إيمانكم بالله إيماناً صحيحاً صادقاً.

إذن : فالأمة التى تتبع منهج الإسلام ، وهو منهج الاعتدال ، هى الأمة المهتدية التى تسير إلى العمل الصالح الصحيح وتعمل به وتُطبِّقه ، لأنه المنهج الذى ينسخ ما قبله ويصححه.

والله سبحانه وضع فى أمة محمد ﷺ مناعة من الحق والخير ضد الباطل والشر، فإذا فسدت المناعة فى فرد يُعدِّله غيره ممن ينهَوْنَ عن المنكر ويأمرون بالمعروف.

ولذلك يصف ربنا فى سورة العصر كل الناس بأنهم فى خُسْر ، أى خاسرون إلا الذين آمنوا، لكن هل آمنوا وسكتوا ؟

لا ، وإنما قال سبحانه :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ (العصر)

فالمناعة ليست فى الذات ؛ لأن الذات غفلت ، ولكن المناعة فى المجتمع إذا أحد اعوجَّ أو انحرف يعدله.

لكن إذا فسدت المناعة فى الذات ، وأصبحت النفس أمَّارة بالسوء ، وفسدت المناعة فى المجتمع فلم يَعُدْ هناك منْ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، كما حدث فى بنى إسرائيل.

قال تعالى :

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ(١) عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٧٩ ﴾ (المائدة)

وهذا يجعلنا فى حالة انتباه وفراسة إيمانية ويقظة ، وأن يلتفت كل منا إلى نفسه ويرقبها ويراقبها ، وإلى أى اتجاه تسير ، فلا يترك الإنسان نفسه تتجه إلى أى مكان موبوء أو فعل غير مستقيم.

(١) تناهوا عن المنكر : نهى بعضهم بعضًا . وقال تعالى : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ..۝٧٩ ﴾ (المائدة) ، أى : كان بنو إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر فعلوه فاستحقوا اللعنة .

وكذلك ينتبه الإنسان إلى أصدقائه وأخلائه حتى نتناهى عن أى منكر، فلا نقع أبداً فى دائرة هذا الحكم ، فكأننا جميعاً علينا أن نحيا فى يقظة إيمانية ، وأن نقول : لا . لكل بادرة ولأى حركة من حركات المنكر.

قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ رأى منكم منكراً فلْيُغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1] .

انظر إلى غير المتدينين ، تجدهم ساكنين فى بعض الأمور ، ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها ، فالواحد منهم لا يصلى ولا يزكى ، ولا يقول كلمة معروف.

وهو فى ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة الله.

ونجد أيضاً من غير المتدينين من يشرب الخمر أو يزنى أو يسرق أو يرتشى ، وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصده عن مثل هذه الحركة.

ولذلك نقول : إن الإنسان فى أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين:

الأول : إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير.

الثانى : وإن كان متحركاً إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه.

وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيمانى فى «افعل» و «لا تفعل» ، فمَنْ يتراخى عن الصلاة ويسكن عنها نقول له: صَلِّ ، ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٩) الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٢) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٢) من حديث أبى سعيد الخدرى ، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

إذن : فالقوة الشرعية تكون فى المنهج بـ «افعل» ليحرك الساكن ، و «لا تفعل» ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة فى ضوء المنهج.

وقد نقل رسول الله ﷺ المسألة من الأمر وهو قول ، والنهى وهو قول أيضاً إلى أن نباشرها فعلاً .

فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فلينكره بقلبه ، ونجد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً ، والرسول جاء بها فعلاً.

إذن: فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف وبالنهى عن المنكر ، ومرة يكون بالفعل.

أما الأمر باللسان فيعنى أن الإنسان إن كان عنده حُسْن تأدّ واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصح ، فله أن يُقبل على عظة الناس.

وليس كل إنسان صالحاً لأن ينصح ، لأن المنصوح يخالف المنهج ، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج ، إنه يُخرِجه عما ألِفَ وأحب ، لذلك يجب أن يتلطف الناصح فى النصح.

لذلك لابد أن نجعل النصح خفيفاً ، ولا نجمع على المنصوح بين أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب .

ولذلك نقول : إن النصح ثقيل ، لأنك حين تنصح إنساناً . فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه ، وأنه أقل منك فى ذلك.

وهذا هو أول مطبٍّ ، وينظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه.

ولهذا قالوا فى الأثر : النصح ثقيل ، فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً.

وقيل أيضاً : الحقائق مُرّة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان.

هكذا يكون التذكير، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول ، لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغيِّر على المغيَّر ، كأن يكون أباه أو أمه ، والأب والأم يقومان برعاية الابن وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً ، وكل منهما هو المتولى لمصالح الابن.

أما إذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح ، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب ، فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه ، وتنبهه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه ، إنك قد قدمت له شيئاً من المعروف فيتحمل منك النصح.

« فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ».

ولكن كيف يكون التغيير بالقلب؟

أى : أن يكون تصرف الإنسان المؤمن هو المقاطعة لمن يخرج على منهج الله ، فإن قاطع كل المؤمنين أىَّ خارج على منهج الله . فلا بد أنه سيرتدع

على المؤمن ألا يقابل منحرفاً أو مجرماً بترحيب أو تعظيم.

فالتغيير بالقلب أن يكون التصرف السلوكى الظاهرى مطابقاً لما فى القلب، فيحس فاعل المنكر أنه مُسْتهجن من غيره.

وقد يستسهل الناس أمور الشر أولاً إذا ما صادفهم مَنْ ينافقهم بمجاملات فى غير محلها ، لكن لو استشعر فاعل لمنكر أنه مُقَاطَع من جماعة المسلمين ، وإن لم تضربه على يده فلابد أن يرتدع.

ومن هنا كانت خيرية أمة محمد ﷺ ، وقد جعل الله فيها الخير إلى يوم القيامة ، ففى هذه الأمة المسلم عنده مناعة ذاتية تبعده عن المعصية ، وحتى لو

تغلبت عليه شهـوة من شهواته ووقع فى المعصية تجـده سرعان ما يرجع إلى الله بالتوبة والندم .

والإنسان الذى تضعف عنده هذه المـقاومة ويزداد فساده ، لا يتركـه المجتمع بل سرعان ما يأخذ على يده ويعيده إلى صوابه.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ :

« الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1]

فالخير كله فى الرسول ﷺ حَصْراً ، وفى أمته من بعـده نثراً ، هذه الأمة فيها كثير من الناس الذين أخذوا صفة أو جزءاً من صفات الرسول ﷺ .

ولكن لا يوجد إنسان يجمع صفات الكمال التى كان عليها الرسول ، ولكن هذا يأخذ جزءاً من تقواه ، وهذا من حلمـه ، وهذا من كرمه ، وهذا من عفوه ، وهذا من سماحته ، وهذا من صبره.

***

والحق سبحـانه يضع فى يدنا مفتـاح الجنة، ففـى يد كل واحد منا مـفتـاح الطريق الذى يقـوده إلى الجنة أو إلى النار ، فإذا وفَّـيْتَ بالعهـد أوفى الله ، وإذا ذكرت الله ذكرك ، وإذا نصرت الله نصرك.

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ (البقرة)

وفى آية أخرى :

(١) أورده السيوطى فى الدرر المنتثرة (ص ٢٢٣) وقال : قال الحافظ ابن حجر العسقلانى: « لا أعرفه » ، وقال ابن حـجر الهـيتمى فى الفـتاوى الحديـثية (ص ١٨٤) : « لم يرد بهـذا اللفظ ، وإنما يدل على معناه الخبر المشهور : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق » .

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (البقرة)

وفى آية ثالثة :

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ... ﴿٧﴾ ﴾ (محمد)

فالنصر منا لله بأن نطبق دينه ، وهذا مراد الله ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج ، ونحن نعرف مقومات النصرة لله ، إنه الإيمان ، وما الإيمان؟

إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا هو الإيمان فى عمومه ، فلو لم أكن مؤمناً بأن الطريق الذى أسير فيه موصل إلى غاية مطلوبة لى لما سِرْت فيه.

فما دُمْت آمنت بأنه « لا إله إلا هو » فليكُنْ اعتمادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إلهاً ، فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يغلب على أمره.

وفى هذا يقول ﷺ :

« إذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رُفِعت الأقلام وجَفَّتْ الصحف»[1].

فلا يستطيع أحد أن يدخل مع الله فى جدال ، إنما يدخل خلق الله مع خلق الله فى خلاف أو نضال ، لكن لا أحد يجرؤ على الدخول فى نضال مع الله ، لأنه عزيز لا يُغلب.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٣) ، والترمذى فى سننه (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح . والحديث عن ابن عباس.

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ[1] قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ (الأنفال)

فهم لا يتوكلون على غيره، بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى، والتوكل : أن تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك.

واعلم أن اتخاذ الله كوليٍّ هو أمر ضروري ، لأن الإنسان تطرأ عليه أحداث تؤكد له أنه ضعيف وله أغيار ، وساعة ضعف الإنسان لابد أن يأوى إلى مَنْ هو أشدُّ منه قوة ولا يتغير.

إن الولى - وهو الله - قوته لا يمكن أن تصير ضعفاً ، وغِناَه لا يمكن أن ينقلب فقراً ، وعلمه لا يمكن أن يئول إلى جهل ، إنه مُغيِّر ولا يتغير ، ولذلك فمن نعمة الله على خلقه أنه جعل من نفسه ولياً لهم ، فهو صاحب الأغيار.

***

(١) وجل يوجل : فزع وخاف. قال تعالى : ﴿ قَالُوا لا تَوْجَلْ.. ۝٥٣ ﴾ (الحجر) أى : لا تفزع ولا تخاف، وهو وجل أى خائف.